



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخِلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الأخوة الكرام: ينطلق مفهوم ليلة القدر من قوله تعالى:

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}

(سورة الأنعام)

فالإنسان إذا عرف الله عز وجل وقدره حق قدره تنفانى في طاعته، أما إذا عرف أمره ولم يعرفه، تفنن في التفلت من أمره، هناك علم بالله و علم بأمره و علم بخلقه، فالعلم بخلقه ماتدرسه الجامعات في شتى بقاع الأرض من علوم كونية، و العلم بأمره ماتدرسه كليات الشريعة في العالم الإسلامي من حلال أو حرام، لكن العلم به هو أصل الدين، لن أصل الدين معرفته، العلم بأمره و العلم بخلقه يقتدي المدارس، بينما العلم به يقتدي المجاهدة، وقد قال الإمام الغزالي جاهد تشاهد، فينطلق مفهوم ليلة القدر من قوله تعالى:

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}

أنت حينما تقدر الله حق قدره تنفانى في طاعته، أما حينما تعرف أمره ولا تعرفه تنفنى في التفلت من أمره، السؤال: كيف نعرف الله؟ معرفة أمره ومعرفة كونه يتم بالمدارسة، ولكن كيف نعرف الله؟

أيها الأخوة الكرام: في القرآن الكريم ما يزيد عن ألف وثلاثمائة آية كونية، والنبي عليه الصلاة والسلام لحكمة بالغة بالغة أو من توجيه الله له لم يشأ أن يفسر هذه الآيات، لانه لو فسرها تفسيراً بسيطاً يتناسب مع معطيات عصره لأنكرنا عليه، ولو فسرها تفسيراً موسعاً وقد آتاه الله العلم بكل شيء لأنكر أصحابه عليه، لذلك تركت هذه الآيات الكونية كمعجزات لهذا القرآن الكريم مستمرة إلى يوم القيامة، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم.

أيها الأخوة الأحباب: معجزات الأنبياء السابقين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين معجزات حسية كعود النقب تآقت مرة واحدة ثم انطفت، فأصبحت خيراً يصدقها من يصدقها، ويكذبه من يكذبه، ولكن معجزة القرآن الكريم معجزة علمية مستمرة إلى يوم القيامة، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم.

قبل سنة تقريباً موقع معلوماتي يمثل أكبر وكالة فضاء في العالم أبرزت في بعض صفحاتها صورة إن رأيتها وتأملت بها لا تشك ثانية واحدة أنها ورده جورية، لأورقها الحمراء الداكنة، ووريقاتها الخضراء الزاهية، وكأسها الأزرق في المركز، ورده جورية بكل ما في هذه الكلمة من معنى فإذا قرأت الحاشية هي صورة لانفجار نجم هو عين القطيبعد عن أرضنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية!

بالمنااسبة الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر، فكم يقطع بالدقيقة؟ وكم يقطع بالساعة؟ وكم يقطع باليوم؟ وكم يقطع بالعام؟ وكم يقطع في ثلاثة آلاف سنة ضوئية؟ إن نظرت إلى هذه الصورة لا تشك أنها صورة لورده جورية، ولكنها في الحقيقة انفجار لنجم عين القط!

اقرأ قوله تعالى:

{فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38)}

(سورة الرحمن)

لو قرأت كل التفاسير لا يروى عليك، أما إذا رأيت هذه الصورة وكان هذه الصورة تفسير لهذه الآية، الإمام علي كرم الله وجهه يقول: في القرآن آيات لما تفسر بعد، ما مدلول هذه الآيات الكونية في القرآن الكريم؟ مدلولها كبير أن الذي خلق الأكران هو الذي أنزل القرآن، هناك طلاق دائم بين العلم والدين في شتى بقاع الأرض، العلم علم والدين دين، إلا في هذا الدين العظيم دين الإسلام، العلم يتعاقق ويتكامل مع الدين، فكلما اكتشفت اكتشافات تأتي الآيات القرآنية مطابقة لها تماماً من أجل أن نعتقد تماماً أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

إخوتنا الكرام: هناك نجم صغير أقرب نجم ملتهب إلينا يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، لو أننا أردنا أن نصل إليه بمركية أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون عام! متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية؟ ومتى نصل إلى مجرة المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية؟ ومتى نصل إلى بعض المجرات التي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية؟ ماذا قال الله عز وجل:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)﴾

(سورة الواقعة)

لذلك قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

(سورة قنطر)

لو قرأ هذه الآية عالم لخرّ ساجداً لله! من كلمة مواقع، لأن هذه المجرة التي تبعد عنا عشرين مليار سنة كانت في هذه الجهة مثلاً قبل عشرين مليار سنة ضوئية، وانطلق منها ضوء بقي يمشي في الفضاء الخارجي عشرين مليار سنة حتى وصل إلينا، لكن هذه المجرة التي أصدرت هذا الضوء تتحرك بسرعة تقترب من الضوء بسرعة مائتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية، أين هي الآن؟ هذا المكان ليس مكانها، إنه موقعها، وكلمة موقع لا تعني أن صاحب الموقع في الموقع، من كلمة موقع عالم الفلك يخبر الله ساجداً!

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)﴾

ربنا عز وجل يقول:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1)﴾

(سورة البروج)

أحد هذه البروج برج العقرب، وفي هذا البرج نجم صغير متألّق أحمر اللون اسمه قلب العقرب، يتسع لماذا؟ بالمناسبة بين الأرض والشمس مائة وستة وخمسين مليون كيلو متر! والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، الضوء يقطع ما بين الشمس والأرض ثمانين دقائق، مائة وستة وخمسين مليون كيلو متر والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، ونجم العقرب الصغير المتألّق الأحمر اللون يتسع للشمس والأرض ومع المسافة بينهما! ذلكم الله رب العالمين، ألم يقل الله عز وجل:

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(سورة هود)

ألم يقل الله عز وجل:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)﴾

(سورة آل عمران)

أيها الأخوة الكرام: يقول الله عز وجل:

﴿وفي الأرض آياتٌ للمؤمنين﴾ (20)

(سورة الذاريات)

كل شيء خلقه الله عز وجل يدل عليه وعلى وجوده وعلى وحدانيته ويدل على كماله، وقد قال الله عز وجل:

﴿سنربهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم﴾

(سورة فصلت)

ماذا في النفس من آيات؟ غدة لا يزيد وزنها عن نصف غرام اسمها الغدة النخامية هي ملكة الغدد في الإنسان، مرتبطة بالجسم بمائة وخمسين ألف عصب، هذه الغدة التي وزنها نصف غرام هي ملكة الغدد كله في الجسم، تفرز تسع هرمونات، كل هرمون لو لم يفرز لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، من هذه الهرمونات هرمون النمو هذا الهرمون مؤلف من مائة وثمانية وثمانين حمض أميني، وذرة الحمض الأميني لا يمكن لذرات الكون أن تصنعها صدفة لشدة تعيده، والطلاب الأعزاء الذين هم في التعليم الثانوي والجامعي يعرفون ماذا يعني الحمض الأميني، هذا الهرمون مؤلف من مائة وثمانية وثمانين حمض أميني، ينبغي أن تكون كثافته في الدم عشر ميكرو غرام في اللتر! فإذا قلت هذه النسبة تفرم الإنسان، وإذا علت تعلق الإنسان، هذا أول هرمون.

يوجد هرمون آخر اسمه هرمون الكظر هذا الكظر غدتان فوق الكلية، الإنسان إذا كان يمشي في طريق أو في بستان ورأى ثعبان ماذا يحصل معه؟ حينما يرى هذا الثعبان تنتطب صورته على شبكية العين إحساسنا، فإذا انتقلت هذه الصورة إلى الدماغ أصبحت إدراكاً بحسب المفهومات عن الثعبان التي تعلمها في المدرسة أو شاهدها أو من خلال تجاربه التي عاينها الدماغ يدرك أن هناك خطر كبير لدغته قاتلة، هو ملك الجهاز العصبي يتصل بملكة الجهاز الهرموني، عن طريق رابط اتصال بينهما هو الجسم تحت السرير البصري في الدماغ، هو ضابط الاتصال، ملك وملكة لا يوجد أمر يوجد التماس بالبالغة، فهذه الغدة النخامية تتلقى التماساً من زميلها الدماغ أن هناك خطر، تعطي أمر موحد إلى الكظر أن هناك خطر تصرف، ماذا يفعل الكظر؟ يرسل هرمون إلى القلب يأمره بزيادة نبضاته، فالخائف نبضه مائة وأربعين لمائة وستين، ويذهب هرمون آخر إلى الرئتين ليزداد وجيبهما، كي يتناسب ضربات القلب مع جيب الرئتين ثم ينطلق هرمون ثالث إلى الأوعية المحيطة الدموية تضيق لمعنتها لأن الخائف الذي هو في خطر لا يحتاج إلى لون وردي، يحتاج إلى طاقة فالخائف يصفر وجهه، لماذا يصفر لونه؟ لأن أوعية المحيطة ضاقت لمعنتها، وذهب الدم الفائض إلى العضلات هذا الأمر الثالث.

الأمر الرابع: الأمر موجه إلى الكبد لإفراز كمية سكر إضافية كي يواجه الخطر، والأمر الخامس للكبد يفرز هرمون التجلط لئلا يسيل الدم من ضربة واحدة.

هذا كله يتم في ثواني، عن طريق الكظر بأمر من الغدة النخامية بتوجيه من الدماغ بإحساس عن طريق العين!

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْلِقَ الْمُوتَى (40)﴾

(سورة القيامة)

أيها الأخوة الكرام: آيات الله في الأفاق وفي النفس لا تعد ولا تحصى، العصب الشمي ينتهي بعشرين مليون عصب، وكل عصب فيه سبع أهداب، وكل هدب مغمس بمادة مخاطية تتفاعل مع الرائحة تشكل شكل هرم أسطوانة موشور، هذه الرائحة تشحن إلى الدماغ وتعرض على الذاكرة الشمية عشرة آلاف بند، فأى ذاكرة توافق معها في الشكل عرفت أنها هذه رائحة الياسمين، دون أن تشعر.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر، لو انتقلنا إلى الحيوان إلى الحشرات، هذه البعوضة التي قال الله عنها:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

(سورة البقرة)

من منا إذا قتل البعوضة يشعر أنه قتل؟ هينة على الناس لدرجة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَتْ الذُّبَابُ تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي)

البعوضة لها قلوب ثلاث، قلب مركزي وقلب لكل جناح، وجناحا البعوضة ترف أربعة آلاف رفة في الثانية هذا هو الطنين، والبعوضة تملك جهاز رادار فإذا كانت في سماء غرفة في الليل لا تقع إلا على جبين الطفل عن طريق الأشعة فوق الحمراء والبعوضة إذا وقعت على جبين الطفل تحلل دمه، لأنه ما كل دم يناسبها، فقد ينم أخوان على سرير واحد يستيقظ أحدهما وقد لدغ بالبعوض والثاني لا أثر للبعوض فيه.

عندها جهاز رادار وجهاز تحليل، وعندها جهاز تمييز، لأن خرطوم البعوضة دقيق جداً، قد لا يحتمل الكريات الحمراء، فيميع الدم عن طريق مادة تفرزها، ثم إن البعوضة لو أحسست أنها لدغتك لفتلتها، تخدر تضربها بعد أن تطير، بعد أن ينتهي مفعول التخدير، فالبعوضة عندها جهاز رادار وجهاز تحليل وجهاز تخدير وجهاز تمييز وليها قلوب

ثلاثة قلب مركزي وقلب لكل جناح، ولها طنين أربعة آلاف رفة في الثانية، ثم إن أرجلها لها مخالب إذا وقعت على سطح خشن تستخدم مخالبها، فإذا وقعت على سطح أملس تستخدم محاجمها عن طريق الضغط، محاجم ومخالب وقلوب وطين وجهاز رادار وجهاز تحليل وجهاز تخدير.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَخِي أَنْ يُضْرَبَ مِثْلًا مَا بَعُوذَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

فنحن يمكن أن نعرف الله من خلقه، وهذا الطريق الآمن لكن لو أردنا أن نعرفه من أفعاله هذا الطريق فيه الغام كثيرة، لأنه لا يمكن أن تكشف عدله من أفعاله إلا أن يكون لك علم بعلمه وهذا مستحيل، لذلك لا تبدأ من معرفة الله من أفعاله، قد تجد شعوباً عارفة في النعيم وشعوباً مضطهدة فقيرة جداً جفاف وقتل وقصف، فإذا أردت أن تعرف الله من أفعاله عد إلى قرآنه، أما إن أردت أن تعرف الله معرفة آمنة واسعة عد إلى مونه وخلقه، فالكون أوسع باب تدخل منه على الله وأقصر طريق إلى الله، وفي القرآن ألف وثلاثمائة ألف آية كونية لا يعقل أن يذكرها الله بلا معنى، لها معنى، والمقصود أن نفكر فيها ونفكر ساعة كما قيل خير من أن تعبد الله ستين عاماً كما في بعض الأثر. لكن هناك طريق آخر يمكن أن تعرف الله من قرآنه، فإله عز وجل جعل في هذا القرآن إعجاز، وإعجاز القرآن يدل على أنه كلام الله عز وجل، فإله عز وجل يقول:

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123)﴾

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)﴾

(سورة البقرة)

اجمع الآيتين من يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله ولا تشقى نفسه ولا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

(سورة الإسراء)

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205)﴾

(سورة الشعراء)

حينما ترى أمة غنية فاجرة كافرة منحلة الأخلاق بلادها جميلة وأمطارها غزيرة وأموالها وفيرة، وترى بلاد المسلمين بشكل آخر لا يرضي.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (207)﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)﴾

(سورة الأنعام)

القرآن يشفيك من القلق ومن الاضطراب، ثم إنه يطمنئك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أُولَئِكَ نُخَذِّبُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزِّلَ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ (32)﴾

(سورة فصلت)

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك، وبارب ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك؟
أيها الأخوة الأحباب: يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107)﴾

(سورة الكهف)

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يُعْبُدُونَنِي﴾

(سورة النور)

هذه آية، لكن لو نظرت إلى الواقع لا ترانا مستخلفين ولا ممكنين ولا آمنين في الأرض، ما تفسير ذلك؟ قال:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَأْتُونَ غِيًّا (59)﴾

(سورة تريم)

هذا الغي الذي وعدنا به إن أضاعنا الصلاة، وقد أجمع العلماء على أن إضاعة الصلاة ليس تركها، ولكن تفرغها من مضمونها، قم فصلي فإنك لم تصل.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

(سورة العنكبوت)

الصلاة قرب من الله عز وجل.

﴿وَاسْتَجِدْ وَاقْتَرِبْ (19)﴾

(سورة الطلق)

الصلاة ذكر.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)﴾

(سورة طه)

الصلاة طهور من غل وحقد وحسد وكبر وغطرسة، الصلاة نور ترى الحق حقاً فتتبعه، وترى الباطل باطلاً فتجتنبه، الصلاة حبور أرحنا بها يا بلال، الصلاة عقل، ليس للمرء من صلواته إلا ما عقل منها، الصلاة معراج المؤمن.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾

أضاعوا قيمتها وخشوعها وإحكام الاتصال بالله بها.

﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾

وقد قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾

(سورة الشعراء)

القلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضى الله، والقلب السليم هو القلب الذي لا يقبل خبراً يتناقض مع وحى الله، والقلب السليم هو القلب الذي لا يحكم غير شرع الله، والقلب السليم هو القلب الذي لا يعبد إلا الله.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾

إن أردت أن تعرف الله تفكر في خلق السماوات والأرض، وإن أردت أن تعرف الله تدبر القرآن، بعد التفكير في خلق السماوات والأرض، وبعد تدبر القرآن يمكن أن تعرفه من آياته التكوينية، الله عز وجل له آيات كونية وآيات تكوينية وله آيات قرآنية، الآيات الكونية خلقه، والآيات التكوينية أفعاله، والآيات القرآنية كلامه، فمن خلال معرفتك لآياته الكونية ثم آياته القرآنية يمكن أن تلقي ضوءاً على آياته التكوينية على أفعاله.

مثلاً: باخرة عظيمة صنعت عام ألف وتسعمائة واثنى عشر، هذه الباخرة سموها التيتانيك وزع على ركابها نشرة صغيرة في هذه النشرة إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة فغرقت من أول رحلة، وكان غرقها درساً من السماء للأرض، قبل سنوات أرسلوا مركبة سموها المتحدي فيها سبع رواد فضاء مع امرأة كي يتم إنجاب في الفضاء الخارجي، هذه المركبة سموها المتحدي أصبحت كتلة من اللهب بعد سبعين ثانية فقط!

الله عز وجل يقول:

﴿الْم تَرَكَيْتُ فَعَلْ رَيْكَ بَعَادٍ (6)﴾

(سورة الحجر)

من منار أي ما فعل الله بعباد؟ لا أحد فكيف يقول الله ألم ترى؟ قال علماء التفسير: ينبغي أن تأخذ خبر الله بمصادقته وكأنك تراه! من هي عاد؟ عاد لم يخلق مثلها في البلاد، تفوق في شتى المجالات في العلم والقوة والمال والغنى والصناعة والتجارة والزراعة، لم يخلق مثلها في البلاد هذه واحدة، ثم إن عاداً مع هذا التفوق العالي استكبار من أشد منا قوة، استكبار وغطرسة وكبر واستعلاء مع هذا التفوق في شتى المجالات لم يخلق مثلها في البلاد ومع هذا الكبر والغطرسة هناك تفوق عمراني.

﴿أَتَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آتِيَةٍ تَغْبِثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)﴾

(سورة الشعراء)

ومع هذا التفوق العمراني هناك تفوق عسكري.

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جِبَارِينَ (130)﴾

ومع التفوق العسكري تفوق علمي

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)﴾

(سورة العنكبوت)

لكن ما هي أفعالهم؟

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (12)﴾

(سورة الحجر)

عدوان وإفساد، وما أهلك الله قوماً إلا ذكرهم أنه أهلك قوماً أشد منهم قوة، إلا عاد، حينما أهلكهم قال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾

(سورة فصلت)

معنى ذلك أن عاداً ليس فوقها إلا الله، وما أهلك الله قوماً إلا ذكرهم أنه أهلك قوماً أشد منهم قوة، إلا عاد تنفرد عاد بأن الله حينما أهلكها ذكرها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾

﴿الْمَ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِمْرَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَتُمُوذَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأُوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَنَبَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَاطِعَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾

(سورة الحجر)

﴿فَأَمَّا تُمُوذُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَ هَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَائِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَنَّى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)﴾

(سورة الحاقة)

لو أن واحداً منكم سألني ما علاقة عاد بدرسنا؟ قوم أهلكهم الله عز وجل، عاد تنفرد من بين الأقوام السابقة بأنها وصفت بأنها أولى وأنه أهلك عاداً الأولى، إذا قال لك تاجر: هذه الدفعة الأولى ماذا تفهم منها أن هناك دفعة ثانية، إذا عاداً ليست قبيلة مضت بل هي نموذج متكرر، تفوق في شتى المجالات، استكبار و غطرسة تفوق عنواني وعسكري وعلمي وعدوان وإفساد.

﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِمَّنْ خَلَقَ أَمْ حَتَّىٰ أَتَىٰ قُلُوبَهُمُ الرُّغْبُ﴾

(سورة الحشر)

مرة سافرت إلى بلاد بعيدة، فلما عدت من سفري سئلت أين كنت؟ قلت في عاد الثانية! لن عاد الأولى ذكرها الله في القرآن بهذه الصفات، و عاد الثانية تشبهها تماماً، لذلك ربنا عز وجل له امتحانان صعبان أحدهما يقوي الكافر إلى أن يفعل ما يريد يبطش ويقتل ويقصف ويميت حتى يقول ضعيف الإيمان أين الله، ثم يظهر آياته حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله لكن أيها الأخوة: دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان، فالنبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق وحبیب الحق لعله لم يمتع برؤية مصير الطغاة قال:

﴿وَأَمَّا نُرُ بَنَّاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نَقُوتُ قِيَّتَكَ﴾

(سورة قيونس)

دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان لذلك ربنا عز وجل يقول:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

(سورة مريم)

نعوذ بالله منها؟ أبدأ قال علماء التفسير: ورودها غير دخولها، لا يتأثر واردها ولا بوجه، لكن لماذا يرد لها؟ قال: كي تتضاعف سعادته بالجنة ليرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً.

إنه كان لي قرين فاطلع فرأه في سوا الجحيم شيء آخر أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل يحقق جزئياً في الدنيا، الذي يبدأ الخلق ثم يعيده.

﴿لِنَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15)﴾

(سورة طه)

فإذا ورد المؤمن النار ولا يتأثر بوجهها ليرى مصير الطغاة فيها، كي يتحقق عنده اسم العدل يرد النار ولا يدخلها، كي يرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً فتضاعف سعادته في الجنة، وكي يرى اسم العدل محققاً في الآخرة بعد أنه لم يكن محقق في الدنيا، لأن الدنيا دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، دار ابتلاء لا دار جزء، دار تكليف لا دار تشريف.

أيها الأخوة الكرام: إذا نظرنا في أفعاله:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)﴾

(سورة الأنعام)

وإذا تدبرنا آياته وإذا تفكرنا في خلقه يمكن أن نعرفه.

ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، من أصبح همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يؤت به من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأنته الدنيا وهي راغمة.